شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

أما بعد:

ينعقد هذا الدرس للنظر والبحث في أمر مهم من أمور الدين، ألا وهو أمر العقيدة، ولا يخفى عليكم أن أمر الاعتقاد هو أصل الدين، وأنه يجب البداءة به، فلهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعلم به قبل العمل، فقال سبحانه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}، فلابد للإنسان أن يكون على بينة من ربه، في ما يأتي وما يذر، وما يعتقد وما ينطوي عليه قلبه، ونحن بحمد الله تعالى نعلم أن الله سبحانه وتعالى أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وهدانا للإسلام، وامتن علينا فقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، فنحن ولله الحمد نثني على ربنا بالخير على ما هدانا {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}، وعلى أنشأنا على الفطرة الأصلية، ولكن ذلك لا يعفي المؤمن من تعلم أمور دينه، والتدبر لما أمر الله تعالى بتدبره، ومن أهم هذه الأمور أمر العقيدة والتوحيد؛ لأنه هو الذي به النجاة والفوز في الآخرة، قال ربنا عز وجل فيما حكى عن خليله إبراهيم: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، فهذا القلب السليم هو الذي سلم من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله، ومن كل شهوة تخالف أمر الله ورسوله.

ودراسة العقيدة لها أهمية من وجوه متعددة، ذلك أن العقيدة هي أصل دعوة المرسلين، وهي أساس العلم، فما من نبي بعثه الله، إلا بدء قومه بهذه الدعوة {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}، كما أن سائر العبادات العملية متوقف عليها، في صحتها وقبولها، وفي حسنها ودوامها، فمن كان على عقيدة صحيحة، كانت أعماله مقبولة، ومن كان على عقيدة فاسدة فإنها ترد عليه.

أيضًا للعلم بالعقيدة الصحيحة ثمرة عظيمة في حصول السعادة القلبية والطمأنينة النفسية، فإن المرء إذا كان على معتقد سليم، اطمأن قلبه وسكن نفسه وذهب عنه القلق والهم والغم.

ومما يتصل بذلك أيضًا، حصول القناعة الفكرية، والاضطراد العقلي الذي يجده أهل الإيمان، فإنهم لا يرون في شيء من الأشياء التي أمر الله بالإيمان بها أو التي شرعها لا يرون فيها تناقضًا أو اضطرابًا، بل يرونها متناسقة موافقة للعقل الصريح، فلا تعارض بين النقل الصحيح، والعقل الصريح، أما الذين حرموا هذه النعمة، فإنهم يتخبطون في الظلمات، ألم تسمعوا إلى قول ذلك القائل الذي لم يجد الإيمان الحق، يقول في حيرة واضطراب:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريق فمشيت

وسأبقى سائر إن شئت هذا أم أبيت أصحيح أن بعد الموت بعث ونشور

فحياة فخلود أم فناء فدثور أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور

أصحيح أن بعض الناس يدري لست أدري ولماذا لست أدري لست أدري

- عياذًا بالله - فأنى لمثل هذا أن يطمئن قلبه أو تسكن نفسه؟ بخلاف أهل الإيمان الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله.

كما أن من ثمرات العقيدة الصحيحة: تحقق صلاح الفرد والأمة، وقيامهم بما خلقوا له.

ومن ثمراتها أيضًا: السلامة من الشبهات والخرافات، بل والقوة على هجر الشهوات والمحرمات.

وفي هذا العصر، وفي هذه العقود الأخيرة بالذات أمر الاعتناء بالعقيدة، لأسباب زائدة عما ذكرنا، من ذلك: نشاط أهل الأهواء والبدع في إحياء بدعهم في العقود الأخيرة، فإن أهل الأهواء والبدع الذين فارقوا أهل السنة والجماعة صاروا يستحيون رفات بدعهم المهجورة، ويدعون إليها ويطبعون الكتب لتسليكها بين الناس تسويقها والاستكثار من الاتباع لا كثرهم الله، كما أنه في مقابل ذلك، نجد من بعض المنسوبين إلى السنة والدعوة تخاذل ودعوة إلى الاتحاد مع أهل البدع والأهواء بدعوى الوحدة والأتلاف، ولكنه على غير أساس متين، وإنما مجرد تجمع لم يرعى فيه الموالاة في الله والمعاداة في الله، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن ضعفوا حديث الافتراق الذي تلقته الأمة بالقبول: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة))، فجنح بعض الفكريين العصريين إلى تضعيف هذا الحديث، لكي يجمعوا ما هب ودب ومشى ودرج تحت أي مسمى دون تمحيص أمر الإيمان، والتفرقة بين أهل الاعتقاد الحق، وأهل البدع والأهواء.

ثم إننا نعتني بهذه المتون المتقدمة؛ لأن السلف المتقدمين أقرب إلى إصابة الحق، وأقرب عهدًا بجيل الصحابة رضوان الله عليهم، وأيضًا فإن في ذلك رد على هؤلاء الزاعمين أن ما يدعوا إليه دعاة السلفية في العصر الحاضر أنه: مما ابتدعه أو جاء به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلامذته، وأن مذهب السلف على خلاف ذلك، فحين ندرس متون السلف المتقدمين يتبين لنا كالشمس في رابعة النهار أن هذه هي العقيدة الحقة، وأن ما جدده شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته إلى يومنا هذا أنه عين ما كان عليه السلف الصالح، وأنه موافق للكتاب والسنة.

لهذا كان لابد لنا من العناية بهذه المتون العظيمة فهما وتدبرها، ومن ذلكم هذا الكتاب الذي اخترناه لنتدارسه في هذا الدرس ((عقيدة السلف وأصحاب الحديث))، أو ((الرسالة في اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة))، وهذه العنوانات قد وجدت مرقومة على بعض المخطوطات، ومضمون هذه الرسالة يدل على ذلك.

أما مؤلف هذه الرسالة وهذه العقيدة المباركة فهو: الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابوني، نسبة إلى عمل الصابون، وهو بيت من البيوتات المشهورة في طبرستان، وهو بيت علم ودين، فينسب إلى الصابوني وإلى النيسابوري أيضًا، ويلقب بشيخ الإسلام هكذا عرف رحمه الله، أبو عثمان الصابوني بشيخ الإسلام، وقد جرى على تلقيبه بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كتبه.

وقد ولد الصابوني رحمه الله: في بلدة يقال لها: بوش نجم من نواحي هراة وذلك في منتصف جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة من الهجرة، وقد نشأ نشأة صالحة فقد كان والده من العلماء الوعاظ، ولكنه قتل رحمه الله وابنه إسماعيل في سن السابعة، ولكنه تربى في محاضن العلماء حتى بز أقرانه وجلس للتدريس في سن مبكرة، وبقي نحو من سبعين سنة ينشر العلم بين المسلمين.

أثنى عليه جمع من العلماء: من ذلكم تلميذه وقرينه البيهقي رحمه الله فقال عنه: إنه إمام المسلمين حقًّا وشيخ الإسلام صدقًا، أهل عصره كلهم مذعنون لعلو شأنه في الدين والسيادة، وحسن الاعتقاد وكثرة العلم ولزوم طريقة السلف، وقال عنه ابن ناصر الدين الدمشقي: كان إمام حافظ عمدة مقدمًا في الوعظ والأدب وغيرهما من العلوم وحفظه للحديث وتفسير القرآن معلوم، وقال عنه الذهبي رحمه الله: كان شيخ خرسان في زمانه، وقال في موضع: كان من أئمة الأثر، وقال عبد الغافر الفارسي تلميذه: هو الإمام شيخ الإسلام الخطيب المفسر المحدث الواعظ أوحد وقته في طريقته، وعظ المسلمين في مجالس التذكير سبعين سنة وخطب وصلى في الجامع – يعني جامع نيسابور – نحو من عشرين سنة.

وظل على هذا رحمه الله على عقيدة حسنة، وله عناية بالأثر حتى توفي يوم الخميس الثالث من شهر محرم سنة تسع وأربعين وأربعمئة إثر مرض ألم به، وقد توفي عن سبع وسبعين سنة تقريبًا رحمه الله رحمة واسعة.

وهذه العقيدة جرى فيها على سنن السلف الصالح رحمهم الله في جميع أبواب الدين، وسوف نتناوله بالشرح والتعليق في الدروس المقبلة.

ولعله من باب حفظ الوقت أن نقرأ ونعلق في نفس الوقت حتى لا تتكرر القراءة والشرح، ونطوي ذكر سند المؤلف والسماعات المذكورة.

يقول أبو عثمان رحمه الله:

(**الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين**) وفي بعض النسخ: (وصلى الله على محمد وآله وأصحابه الكرام).

(**أما بعد: فإني لما وردت آمد طبرستان وبلاد جيلان متوجهاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام، سألني إخواني في الدين أن أجمع لهم فصولاً في أصول الدين التي استمسك بها الذين مضوا من أئمة الدين**) في هذه القطعة بيان لسبب تأليف هذه الرسالة، وذلك أن المؤلف رحمه الله لما كان متوجه لبيت الله الحرام، وزيارة مسجد نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد عبر رحمه الله بتعبير عليه مؤاخذة، وهو قوله: (**وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم**) ومن المعلوم أن شد الرحل لا يكون إلا للمسجد لكن درج بعض العلماء على التعبير بزيارة القبر، وهم يريدون بذلك زيارة المسجد، وإلا فقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى))، فلما كان في الطريق مر ببلاد آمد طبرستان، ويقال أحيانا: آمل طبرستان، وبلاد جيلان، وهي في جنوب بحر قزوين تقريبًا، في شمال إيران وما حولها، فلما مر بتلك البلاد، سأله بعض إخوانه في الدين أن يجمع لهم فصولًا في أصول الدين.

إذًا أراد بذلك أن يجمع أمهات العقائد التي ينبغي أن يكون عليها المسلم، وقد وصفها بعدة أوصاف:

أولها: (**قال التي استمسك بها الذين مضوا من أئمة الدين وعلماء المسلمين**) والخير فيما كان عليه الماضون من أئمة الدين وعلماء المسلمين.

قال: (**والسلف الصالحين**) فمن صار على هديهم فهو حري بالتوفيق.

ثانيًا: (**وهدوا ودعوا الناس إليها في كل حين**) أي أنهم لم يقتصروا على الاستمساك بها، وإنما ضموا إلى ذلك الدعوة إليها وهداية الناس بها.

الأمر الثالث: (**ونهوا عما يضادها وينافيها جملة المؤمنين المصدقين المتقين**) أي أنهم لم يقتصروا أيضًا على الدعوة إليها فقط، بل حذروا من مخالفتها واعتقاد ما يضادها.

رابعًا: (**ووالوا في اتباعها**) أي أن السلف المتقدمين كانوا يوالون من استمسك بها.

خامسًا: (**وعادوا فيها**) كانوا يعادون من خالفها.

سادسًا: (**وبدعوا وكفروا من اعتقد غيرها**). أي أنهم كان من شأن السلف المتقدمين أن من لم يعتقد هذه العقائد في أصول الدين أنه محل للبدعة أو الكفر.

وأراد بذلك رحمه الله بقوله: (**وبدعوا وكفروا**) التنويع، لا أن كل ما ورد في هذه العقيدة فإن مخالفته توجب الكفر كلا، وإنما أراد التنويع، بعض مخالفتها يوقع في الكفر، وبعضه يوقع في البدعة.

سابعًا: (**وأحرزوا لأنفسهم ولمن دعوهم إليها بركتها وخيرها**) وفي بعض النسخ: (**بركتها ويمنها وخيرها**) أي والله، فإن هذا من ثمرات هذه العقيدة؛ أن من دعا إليها وعمل بها فإنه يحرز لنفسه ولمن يدعوه البركة واليمن والخير.

ثامنًا: قال: (**وأفضوا إلى ما قدموه من ثواب اعتقادهم لها، واستمساكهم بها وإرشاد العباد إليها، وحملهم إياهم عليها**) أي أنهم ماتوا على ذلك رحمهم الله، فلم يرجعوا عن شيء منها.

فهذه الأوصاف الثمانية هي التي طلب منه أهل تلك البلاد، أن يجمع لهم عقيدة هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف.

قال رحمه الله: (**فاستخرت الله تعالى، وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها**) وفي هذا فائدة: أنه ينبغي للمرء أن يستخير الله عز وجل في كل أمر مهم كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، يقول: ((إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل:...)) وذكر الدعاء، فينبغي للإنسان أن يستخير ربه في كل أمر مهم، لاسيما في مثل هذا الأمر الذي إذا سطره مؤلفه فإنه سيأخذ به فئام من الناس كما ترون إلى يومنا هذا ونحن نقرأ ونعتقد ما كتبه أبو عثمان الصابوني قبل أكثر من ألف سنة، فلا شك أن هذا أمر مهم، ما يجري به القلم وما ينطق به اللسان، إذا كان من الأمور المهمة أن يستخير العبد ربه في ذلك، فإن كان خيرًا أمضاه الله عز وجل، وإن كان شرًا حال الله عز وجل بينه وبينه بأي سبب من الأسباب، قال:

(**فاستخرت الله تعالى، وأثبت في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيل الاختصار رجاء أن ينتفع بها أولو الألباب والأبصار**) إي والله، لا ينتفع بالحق إلا أولو الألباب والأبصار، أما من ختم الله على قلبه فمهما تأتيه من آية لا ينتفع بها.

(**والله سبحانه وتعالى يحقق الظن، ويجزل علينا المن بالتوفيق**) وهذا خبر والمراد به الدعاء والإنشاء؛ لأنه يسأل الله سبحانه وتعالى أن يحقق حسن ظنه به، ويجزل عليه المن بالتوفيق، وفي نسخة (**بالتوفيق للصواب والصدق والهداية، والاستقامة على سبيل الرشد والحق بمنه وفضله**) وهذا يدلنا على إخلاص السلف المتقدمين فإنهم كانوا فيما يأتون وما يذرون، يلحظون في ذلك وجه الله عز وجل، وأنه يقربهم إلى الدار الآخرة لا يريدون بذلك التصدر ولا التزين ولا طلب الصيت والشهرة، ولذلك بارك الله تعالى فيما كتبوه، وجعله نافعًا لعباده رافد لهم يوم يلقون ربهم.

يقول رحمه الله:

(**قلت وبالله التوفيق: أصحاب الحديث**) وفي نسخة: (**المتمسكين بالكتاب والسنة، حفظ الله تعالى أحياءهم ورحم أمواتهم يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة**) أصحاب الحديث هم أنفسهم أهل السنة والجماعة، وهم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية، هم خلص هذه الأمة؛ وذلك لأنهم اعتنوا بالأثر وأخذوا بإرث محمد صلى الله عليه وسلم، وهو العلم كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر))، فلذلك قيل أصحاب الحديث، والمراد أصحاب القرآن والحديث، أي أنهم أمضوا وأفنوا أعمارهم في تتبع العلم والسفر إلى المشايخ ذوي الأسانيد العالية؛ ليحفظوا دين الله عز وجل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (نحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه، أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرا وباطنا، واتباعه باطنا وظاهرا)، إذًا هؤلاء هم أهل الحديث حقًّا وصدقًا، وعليهم يتترل قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا؛

فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير)) هم هؤلاء، أعلى المراتب، ((وكان منها أجادب، أمسكت الماء فشرب الناس منه وسقوا وزرعوا، وكان منها قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت شجرًا، فذلك مثل من نفعه الله بما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))، فأهل الحديث الذين هم في أعلى المراتب، هم الذين رووا وفقهوا، كالإمام أحمد ومالك والسفيانان والأوزاعي والثوري وغيرهم من أئمة العلم والدين، أما من حفظ وروى ولم يفقه فهو في مرتبة دون ذلك، وهم من مثلهم النبي صلى الله عليه وسلم بالأجادب وهي الحياض الواسعة التي يجتمع فيها الماء فيرده الناس ويستقون منه ويزرعون ويشربون، لكنهم في ذات أنفسهم، لا ينتفعون منه فقها وتخريجا وفهما للمسائل، لكنهم على خير، أما أدنى المراتب والعياذ بالله فمن لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم، وهم المعرضون عن العلم جملة وتفصيلا، فهؤلاء نسأل الله العافية، هم أقل المراتب، وقد جاء في الحديث: ((الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلم)).

وقد ابتدأ الشيخ رحمه الله بذكر أعظم الأمور وأجلها، وهي بوابة الإسلام: الشهادتان، فقال:

(يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة) وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فهذه الشهادة تعني الاعتقاد الجازم، والإقرار الذي لا تردد فيه، ولا شك بأن الله واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأنه مستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

فتوحيد الله عز وجل ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

فأما توحيد الربوبية: فهو توحيده بأفعاله سبحانه، أي أنه هو الخالق المالك المدبر، فلا خالق سواه ولا مالك سواه ومدبر سواه.

وتوحيده بالألوهية: توحيد بأفعال عباده؛ أي أنه لا يستحق أحد أن يعبد سوى الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز صرف أي نوع من أنواع العبادة سواء كانت عبادة قلبية، كالخوف والرجاء والمحبة، أو كانت عبادة عملية،

كالصلاة والحج والجهاد في سبيل الله، أو كانت عبادة لسانية كالدعاء والتلاوة، أو كانت عبادة مالية كالزكاة والصدقة، أو جمعت بين أمور متعددة= لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، فهذا هو توحيد الألوهية.

وأما توحيد الأسماء والصفات: فهو إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته. فيجب القيام بجميع أنواع التوحيد الثلاثة في تحقيق وحدانية الله عز وجل.

وأما حق النبي صلى الله عليه وسلم فهو الشهادة له بالرسالة والنبوة، أي أنه نبي رسول من عند الله عز وجل، وذلك يقتضي تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع على لسانه صلى الله عليه وسلم.

فنبينا صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم، وهو أفضل الأنبياء على الإطلاق، نبي رسول، وقد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول، فقال بعضهم: إن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يأمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى تفريق آخر فقال: (إن الرسول هو من أوحي إليه بشرع جديد وأمر بتبليغه، وأما النبي فهو من أوحي إليه بشرع رسول قبله وأمر بتجديده)، كأنبياء بني إسرائيل، فموسى عليه السلام رسول، لأنه أتى بالتوراة فيها هدى ونور، وعيسى عليه السلام رسول لأنه أتى بالإنجيل، ومحمد صلى الله عليه رسول لأنه أتى بالقرآن {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}، لكن ما بين موسى وعيسى مثلًا أنبياء كثر ليعملوا بالتوراة ويجددوا ما اندرس منها ونسي من بني إسرائيل.